**المحاضرة الثانية : أسباب نشأة عام الكلام :**

**المحاضرة الثانية : أسباب نشأة عام الكلام :**

علم الكلام هو علم " الدّفاع عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة العقليّة " ودفع الشّبه والشّكوك عن الدّين الإسلاميّ في ناحية عقائده وأصوله ، وذلك عن طريق الحجاج والنّظر العقليّ ومنهج الجدل .

وهو من العلوم الإسلاميّة الأصيلة ، فكما أبدع المسلمون الفقه وأصول الفقه وعلم الحديث والبلاعة وغيرها وكانت علوما إسلاميّة أصيلة كذلك أنتجوا علوم الكلام . وعلم الكلام لم ينشأ منذ القدم بل حديث النشأة كغيره من العلوم الإسلاميّة الأخرى وكانت له أسباب ساهمت في نشأته تراوحت بين الدّاخليّة والخارجيّة .

أ - الأسباب الخارجية :

أمّا الخارجيّة فمن خارج البلاد الإسلاميّة ؛ أي ما دخل إلى المسلمين من ثقافات وديانات مختلفة غربيّة وشرقيّة كانت كدافع استدعى إلى ضرورة الرّدّ ، وضرورة الدفاع عن العقيدة الإسلامية .

لقد كان هذا الاختلاط بين المسلمين وغيرهم والّذي اشتدّ في عهد الفتوحات الإسلامية سببا خارجيّا مباشرا و أساسيا لنشأة علم الكلام ، فالمسلمين اختلطوا بشعوب كثيرة لها ديانات مختلفة ، فلم يكن اليونان هم الشّعب الوحيد الّذي اختلط به المسلمون ، بل شعوب أخرى تراوحت دياناتهم بين اليهوديّة والمسيحيّة والصّابئة والوثنيّة والمانويّة وغيرها .

أمّا تعرف العرب <بغيرهم> واختلاطهم بهم كان قديما ، يمكن أن نعود بتاريخ العرب حتّى مرحلة الجاهليّة من خلال التّجارة والحملات التّبشيريّة ، لكنّه اختلاط لم يساهم في نشأة علم العقائد ، لأنّ العرب في ذلك الوقت لم تكن لهم رسالة سماويّة منزّلة ، ومنه لم يؤثّر ذلك الاختلاط على العرب .

أمّا وإن كان للعرب ديانة سماويّة توحّدهم فإنّ أصحاب الدّيانات الأخرى همّوا إلى تنصير دياناتهم ورفعها والدّفاع عنها ، وكان سبيلهم في ذلك بث الشّكوك وإثارة الشبيهات حول القرآن الكريم .

وعندما شعر المسلمون بخطورة الوضع ، وخافوا على دينهم من الشّبه والشّكوك الّتي كانت تثار حوله ، أوجبوا على أنفسهم ضرورة الرّدّ والدّفاع فنشأ علم الكلام .

إلّا أنّ هذا العلم لم ينشأ منذ البداية دفعة واحدة ، بل مرّ بعدة بمراحل وأدوار حتّى أصبح علما متكاملا له أبوابه وفصوله ومبادئه ، إذ لا يمكن التّحدّث عن علم الكلام كعلم إلا مع نهاية القرن الثاني للهجرة وبالتّحديد مع المعتزلة ، وهي المرحلة الّتي بلغ فيها ذروته وصولا إلى القرن الرابع للهجرة مع الأشاعرة ، وهذا الزّمن هو زمن تدوين علم الكلام .

ومنه فإنّ اختلاط المسلمين بغيرهم ، كما أشرنا هو السّبب الخارجيّ المباشر ، انطلاقا من أنّ أولئك المشكّكين في الدّين والمثيرين للشّبهات كانوا قد تعرّفوا على الفلسفة اليونانيّة وعلى المنطق الأرسطيّ ، وبذلك كانوا قد أتقنوا طريقة الجدل والبرهان والحجاج في المسائل اللّاهوتيّة . هذا إضافة إلى أنهم كانت لهم ديانات قديمة ، كل هذه الإمكانيّات وإن صحّ تسميتها المؤهّلات أعطتهم القدرة على إتقان الجدل في اللّاهوتيّات وفي مسائل أصول العقائد ،كقولهم في التّوحيد والصّفات والقدر والقضاء وغيرها .

ومن هنا وجب كذلك أن نشير إلى تاريخ هذا الاختلاط الذي كان سببا في نشأة علم الكلام ، وذلك بالرّجوع إلى مراحل بناء الدّولة الإسلاميّة وبالتّحديد إلى المرحلة الّتي بدأت تظهر فيها الفتن والبدع باعتبار أنّ هذا العلم الّذي نتكلّم عنه نشأ ردّا على تلك البدع ودفعا للشّبه وإطفاء للفتن حتّى لا يضلّ عامّة النّاس من المسلمين بين مشبّه ومجسّم وموحّد وغيرهم .

وربّما اشتدّ الاختلاط في زمن الخليفة عمر بن الخطّاب ، هذا الأخير الّذي حقّق فتوحات كبيرة نحو الشّرق والغرب ، ومنه فبوادر الجدل في العقائد كانت في زمن الصّحابة رضوان الله عليهم .

**ب - الأسباب الدّاخليّة لنشأة عم الكلام:**

وهي أسباب نشأة علم الكلام من داخل البلاد الإسلاميّة ، وعلى رأسها اختلاف المسلمين فيما بينهم ، ولا نقصد هنا مسألة الخلافة فقط ، لأنّ هذه الأخيرة هي واحدة من بين الاختلافات الأساسيّة ، وهي سبب مباشر لنشأة الفرق الكلاميّة ، وهي كذلك ذات طابع سياسيّ فلا يمكن لما هو سياسيّ أن ينتج علما ذو طابع اعتقاديّ ، وإنّما اختلف المسلمون في مسائل عديدة كانت كلّ واحدة منها دافعا لما بعدها ، ويمكن أن نجمل تلك الاختلافات فيما يلي : اختلاف حول الخلافة ، اختلافات فقهيّة ( الأحكام العمليّة )،اختلافات عقائديّة ( أصول الدّين ).

**أ-1/ اختلاف حول الخلافة :**

هو خلاف مشهور معروف بين المسلمين بعد وفاة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام حول من يؤمّ المسلمين بعده ويتولّى أمور الدّولة الإسلاميّة وهو خلاف سياسيّ خالص .

إنّ تطوّر الخلاف بين المسلمين من خلاف سياسيّ إلى خلاف فقهيّ إلى خلاف عقائديّ أدّى إلى نشأة علم الكلام ، وذلك أنّ الاختلاف بين المسلمين أسفر عن نشوء فرق كثيرة وهذا مرجعه خلاف سياسيّ بالدّرجة الأولى .

**أ - 2 / اختلاف حول الأحكام العمليّة :**

قد يتساءل البعض : كيف أنّ الخلاف في الفروع كان سببا في نشأة علم الأصول ؟ مع العلم بأنّ الفروع الّتي تمثّل الأحكام العمليّة لها مجالها الخاصّ وعلومها الخاصّة بها وعلى رأسها علم الفقه .

إنّ الفقه وأصوله أو بالأحرى استنباط الأحكام العمليّة من أدلّتها التّفصيليّة أدّى إلى الرّأي والاجتهاد ، وهذا المنهج عند المسلمين مسموح به وليس بدعة ، وكان في زمن الصّحابة الّذين كانوا يجيزونه ويعتمدونه فيما لم يكن ظاهرا لهم ، أو فيما لم يبيّنه الشّرع بشكل صريح ، وفي هذا يقول أبو إسحاق الشّيرازيّ في كتابه طبقات الفقهاء : " إعلم أنّ أكثر أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الّذين صحبوه ولازموه كانوا فقهاء ، وذلك أنّ طريق الفقه في حقّ الصّحابة خطاب الله تعالى أو خطاب رسوله صلّى الله عليه وسلّم وما عقل منها ، وأفعال رسول الله صلّى الله عليه سلّم وما عقل منها وخطاب الله عزّ وجلّ هو القرآن وقد أنزل بلغتهم وعلى أسباب عرفوها وقصص كانوا فيها فعرفوا مسطوره ومنصوصه ومعقوله " [[1]](#footnote-2).

أمّا في زمن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام فقد كان يجيب المسلمين على كلّ ما صعب عليهم بوحي من الله ، لكن بعد موته صلّى الله عليه وسلّم ، ظهرت بعض الأسئلة الفقهيّة الّتي لم يستطع أئمّة المسلمين وعلمائهم من الصحابة والتابعين الإجابة عليها ، إما لأنهم لم يجدوا جوبا صريحا محكما عنها في النص ، أو وجدوا جواب لها ، ولكنه لم يكن واضح الدلالة والمعنى ، فظهرت الحاجة إلى إعمال العقل والنظر من خلال الاجتهاد والرأي .

إن هذا التوجه الجديد نحو الرأي والاجتهاد فتح باب الجدل بين المسلمين ، فدخلوا في بحوث فقهية استدعت منهم مناهج في البحث ، كعلم أصول الفقه .

خلاصة القول هو أن باب النظر والرأي والاجتهاد في المسائل الفقهية مهد الطريق نحو الجدل في العقائد ، وإن لم يكن الصحابة وأهل الحديث هم الذين أثاروا الجدل حول مسائل التوحيد والصفات وكلام الله والقضاء والقدر ، فإنهم أخذوا على عاتقهم في البداية مهمة الرد على أصحاب الشبه والمشككين .

**أ – 3/ اختلاف في العقائد :** وهو اختلاف ظهر في عصر الصحابة رضوان الله عليهم خاصة في نهايته ، ويمكن أن نلمح بوادره مع فرقة السبئية ، في قولهم بالتأليه ، وأيضا مع فتنة الخوارج الذين بالغوا كثيرا في قولهم بالتكفير وقولهم كذالك في الكفر والإيمان والوعد والوعيد .

هذا وقد تطور الجدل في العقائد مع فرقة القدرية وقولها بنفي القدر وأن الإنسان هو خالق أفعاله ، ثم ظهرت الجهمية والمرجئة وفرق المشبهة وغيرها ، وهذه الفرق كلها برزت في نهاية القرن الأول للهجرة مع العهد الأموي الذي كثرت فيه الفتن واشتد فيه الجدل والشك وإثارة الشبه .

إن هذا الجدل في العقائد وما سبقه من جدل سياسي حول الخلافة ، ورأي واجتهاد في الأحكام العملية كان سببا مباشرا في نشأة علم الكلام ، وسنعود إلى هذا الجدل في العقائد بالتفصيل في خلال كلامنا عن مراحل وأدوار علم الكلام ،وذلك فيما يلي :

1. أبي إسحاق الشّيرازيّ الشّافعيّ ، طبقات الفقهاء ،تحقّيق وتقدّيم إحسان عبّاس ، دار الرّائد العربيّ بيروت دون طبعة وسنة ، ص 35. [↑](#footnote-ref-2)